9

الظمــأ المقدس

قبل إنشاء خطوط السكك الحديدية عبر الولايات المتحدة، كان بإمكان الإنسان الوصول إلى سان فرانسيسكو من الصين بحراً بأسرع وأرخص مما كان يمكنه الوصول إليها براً من سانت لويس[1]. وهذه الحقيقة البسيطة تفسِّر السبب في أن أعظم تحد واجه الأوروبيين الغربيين الساعين للبحث عن الذَّهب ولتوسيع تجارتهم خلال القرن الخامس عشر، كان في إيجاد طريق بحري مباشر إلى الهند والشرق الأقصى. فقد كان نجاح تلك المغامرة هو البديل للممرّات الخطرة والشاقَّة التي ظلَّت ولمئات السنين طريقاً لحمل البضائع وللأَشخاص الذين يمتطون الجياد أَو البغال أَو يسيرون على الأقدام.

كان البرتغاليون هم السبَّاقون لقيادة حركة اكتشاف العالم. ولم يأت ذلك مصادفة. فالبرتغال بلد ذو امتداد ضيِّق، بحيث أنَّها تُعتبر، بالنسبة لعدد سكانها، الأولى من بين الدول الأوروبية من حيث طول ساحلها البحري. كما كانت إحدى أفقر دول أوروبا في نهاية العصور الوسطى، مما يعني أن الاكتشافات المربحة، حتى ولو كانت صغيرة، ستغيِّر الأمور إلى حد كبير. وقد أدَّت الاضطرابات السياسية والانخفاض في القوة الشرائية للعملة، خلال الأيام القاتمة للقرن الرابع عشر، إلى تقويض طبقة النبلاء ودفعتهم للبحث عن

ثروات جديدة عن طريق القيام بمشاريع خارج البلاد. كان الجو بجملته يشكِّل خلفية كاملة لحماس الأمير هنري الملاح الصادق لاستخدام البحار من أجل توسيع قوة البرتغال ونفوذها.

شكَّل الذَّهب الهدف الرئيسي للاستكشافات البرتغالية، ولكن ذلك لم يكن كل شيء. فقد ادَّعى كل المستكشفين في القرن الخامس عشر أنَّهم كانوا بصدد حملة صليبية أخرى ترمي إِلى إِغراء الكفار باعتناق الدين المسيحي. وعندما تبين أن سكَّان تلك الأراضي البعيدة كانوا من ذوي البشرة الداكنة، أقنع البرتغاليون أنفسهم بأن امتلاك تلك الأرواح التعسة لتحويلها إِلى عبيد كان أمراً مناسباً إِلى حد كبير ويسهل عملية التحول الديني، في نفس الوقت الذي يلبي فيه، بشكل عرضي، تلك الحاجة الماسَّة ليد عاملة رخيصة. وهكذا نرى أن فكرة الاستعباد جاءت متأخرة قليلاً وكانت نتاجاً ثانوياً لعملية البحث عن الكنوز المعدنية، لكنها أخذت تكتسب أَهميَّة متزايدة.

كان الهدف الملحّ أمام الأمير هنري هو استيعاب الخطر الذي يتهدَّد البرتغال والمتمثِّل في القراصنة المور الذين كانوا يغزون السفن في غرب المتوسط. وكان هؤلاء القراصنة، الذين عُرفوا فيما بعد بالقراصنة البربر، لا يزالون يشكِّلون خطراً على التجارة والسفر عندما قام جون بول جونز بملاحقتهم بعد ذلك بأربعمائة سنة تقريباً. بدأ هنري حملته سنة 1415 بالاستيلاء على مدينة المور «سبتة» الواقعة شرقي مضيق جبل طارق تماماً، على الشاطىء الشمالي لإِفريقيا. كانت سبتة مدينة ثرية تلعب دور الميناء الرئيسي على البحر الأبيض المتوسط للبضائع التي كان التجار العرب يأتون بها من إِفريقيا وآسيا. وكانت سبتة هي الميناء الرئيسي بشكل خاص للقوافل التي كانت تحمل الذَّهب الإِفريقي عبر الصحراء لشحنه إِلى أوروبا. وعندما كانت الجيوش البرتغالية تقوم بنهب كل زاوية في سبتة وجدوا الكثير من الأدلَّة التي تشير إِلى الثروات الذهبية في غرب إِفريقيا.

لقد وضع الاستيلاء على سبتة هنري ورجاله أمام استراتيجية لم يكن لهم فيها من خيار: فهم إذا استطاعوا نقل إنتاج المناجم الإفريقية بطريق البحر إلى شواطئهم، فإنَّهم سيتمكنون من الالتفاف حول بقية القارة الأوروبية وذلك بتطويق تلك الرحلة المتعبة والمكلفة التي تقطعها الجمال عبر الصحراء الكبرى في طريقها إلى المراكز التجارية الشمالية على البحر الأبيض المتوسط. وهنا تستحق الحسابات نظرة تفصيلية.

باستطاعة الجمل، أن يحمل ما بين 120 ـ 200 كغ من الحمولة عبر الصحراء لمدة تتراوح بين ثماني واثنتي عشرة ساعة في اليوم بسرعة 2,5 ـ 5 ميل في الساعة، ولكنَّ ذلك يتوقّف على نوعيته. إذا أخذنا جملاً عادياً يستطيع حمل 160 كغ لمدة عشر ساعات والسير بسرعة، لنقل أنها، تصل إلى 3,5 ميلاً في الساعة. جمل كهذا يقطع 35 ميلاً في اليوم. إنَّ المسافة بين شاطىء المتوسط في بلاد المغرب وبلاد الذَّهب تبلغ ألفي ميل تقريباً ـ أي المسافة بين نيويورك ولاس فيغاس إلى حد ما، أو بين طرفي البحر الأبيض المتوسط ـ وهذا يعني أن على الجمل أن يقضي 55 يوماً تقريباً في الرحلة (رغم وجود مجال واسع لهذه القيمة الوسطية أيضاً). وبعد انتهاء الرحلة، علينا أن نذكر هنا أنَّه يتوجَّب إعطاء الجمل مدة طويلة من الراحة يستعيد فيها قواه للعمل. وفي العادة، بإمكان رجل واحد تدبير شؤون أربعة جمال في وقت واحد. وبما أن عدد الجمال في القافلة الواحدة يتراوح ما بين ثلاثمائة جمل و3500 جمل ، فإنَّه يجب أن يكون عدد العاملين ما بين 75 رجلاً وتسعمائة رجل، ولا بد أن منظر القوافل، حتى الصغيرة منها، وهي تضرب الأرض عبر رمال الصحراء كان منظراً يستحق المشاهدة. والقافلة المؤلَّفة من ألف جمل، يحمل كل منها 160 كغ، تنقل ما مجموعه 160 طناً متريا من الحمولة.

أما السفينة فهي تسير في البحر بسرعة أبطأ، بحدود ستين بالمائة تقريباً

من سرعة الجمل. لكن السفينة تسير 24 ساعة في اليوم، وقوافل الجمال كان عليها السير حسب سرعة أبطأ الجمال كما أنَّها كانت تسير ثلث أَو نصف ساعات اليوم. تكون النتيجة إذاً أن السفينة تستطيع أن تقطع أَكثر من ضعف المسافة التي يقطعها الجمل في يوم واحد. وبما أن المسافة بطريق البحر بين مضيق جبل طارق وبين أراضي الذَّهب تبلغ في حدّها الأقصى ضعف المسافة عبر الصحراء، فإن السفينة لا تتمتع من حيث الزمن اللازم للسفر سوى بميزة متواضعة ـ رغم أن السفينة كالجمل، تحتاج للإصلاحات بعد الرحلات الطويلة. أما الميزة الكبرى فهي تتعلَّق بالطاقة البشرية. فالحسابات السابقة تظهر لنا أنَّه، في حال وجود أربعة جمال لكل رجل و160 كغ لكل جمل، يكون كل رجل مسؤولاً عن ما يقارب 0,7 طن من الحمولة. أما في السفينة، وحسب حجم المركب وعدد أفراد الطاقم، فإنَّه يمكن للرجل أن يكون مسؤولاً عن أي وزن يتراوح ما بين ثلاثة أطنان وحتى أربعة عشر طناً[2]. إن السفينة تكون بلا شك معرضة لخطر الغرق بسبب العواصف أَو لخطر القراصنة، ولكن الجمال أيضاً يمكن أن تُصاب بالمرض كما يمكن للقافلة بكاملها أن تتعرّض للهجوم من قبل البربر أَو أية جماعة بدوية أخرى.

كانت سفن القرن الخامس عشر مجهزة بشراع مثلَّث الشكل، وهو ابتكار تقني خارق كان قد تم تطويره في شرق البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الثاني للميلاد، ولكن لم ينتشر استخدامه على نطاق واسع إلاَّ في العصور الوسطى. وخلافاً للأشرعة التقليدية ذات الشكل المربع، التي كانت تنشر بوضع أفقي وتحدُّ من حركة السفينة لتجعلها إلى حد ما تسير وهي تسبق حركة الرياح، كان الشراع المثلَّث الشكل يُنشر بوضع عامودي على طول السفينة. وكان بإمكانه التأرجح ما بين الجانبين الأيمن والأيسر للسفينة جيئة وذهاباً، مما سمح، ولأَول مرة، بتغيير اتجاه السفن الكبيرة، بحيث تتلقى الرياح على كلا جانبيها.

وقد وسَّع هذا الابتكار إلى حدّ كبير مجال الإبحار أمام السفن ذات الأشرعة ـ ولولاه، لما استطاع كولومبس اكتشاف أمريكا.

بدأ هنري ورجاله بتنفيذ سياسة عدوانية منهجية ضد مدن المور، تلك التي على شاطىء المتوسط أولاً، ثم المدن الموجودة على الساحل الغربي، على المحيط الأطلسي. وسرعان ما ظهرت النتائج، وذلك بشكل حركة تنامت بسرعة لتجارة العبيد والصباغ الأزرق (النيلة) والسكر بين إفريقيا والبرتغال. بدأ الذَّهب أيضاً يتدفّق، لكن الكميات كانت تبدو للبرتغاليين ضئيلة بالمقارنة مع توقعاتهم الكبيرة. وكانوا على ثقة من أنَّهم سيكتشفون في مكان ما في قلب الساحل الغربي لإفريقيا الريودورو، أي نهر الذَّهب بالمعنيين الحرفي والمجازي. وكل ما كان عليهم فعله هو المضي قُدماً.

لم تكن المسألة تتعلَّق فقط بالإبحار على طوال الساحل حتَّى يجدوا نهر الذَّهب. فرغم أن الفينيقيين وبعض المستكشفين الآخرين فيما بعد، قد قاموا ببعض الرحلات القصيرة في ذلك الاتجاه إلاَّ أن أحداً لم يستطع على الإطلاق أن يكتشف كامل الساحل الغربي لإفريقيا عن طريق البحر. وكانت كل التقارير القليلة المتوفرة، دون استثناء، تثير الروع. وكان البحارة العرب، المعتادون على التردّد على الساحل الشرقي لإفريقيا، يغذّون التراث الشعبي المتوسطي بقصص البحار ذات المياه التي تغلي على الساحل الغربي، والتي تعج بالثعابين المتلهفة لاختطاف اللحم البشري من على سطوح السفن. أما المحظوظون ممن تُكتب لهم النجاة من رحلة كهذه فإنَّهم يعانون مصيراً مرعباً وهو رؤية لون جلدهم يتحوَّل من البياض إلى السواد[3]. وكانت الرياح خطرة، والأهالي عدائيّين والمنبع الفعلي للذهب ظلَّ لغزاً ولم يجد حلاً.

ورغم كل المخاطر، فإنَّ المكافأة المنتظرة كانت مغرية بشكل لم يكن بإمكان الخوف أن يثني البرتغاليين عن السعي للحصول عليها، وبدأ الملاَّحون البرتغاليون شيئاً فشيئاً، وفي رحلات متتابعة، بالزحف بهدوء على طول الساحل، يتحدّون الأسهم المسمومة ويشيدون التحصينات ويأسرون العبيد (كانوا يكتفون بأسر المور إذا لم يصادفوا زنوجاً، أو أن المور كانوا يتعاونون معهم بأن يمدّوهم بالزنوج). ورغم بطء وتيرة التقدّم، لم يفقد البحارة البرتغاليون إيمانهم بأنَّهم سيكتشفون في نهاية الأمر نهر الذَّهب المراوغ. وأخيراً، وفي منتصف القرن، نجحت السفن البرتغالية الشراعية السريعة في الدوران حول القسم الغربي من إفريقيا ذي الأدغال الكثيفة حيث يواجه الساحل جهة الجنوب. كانت تلك منطقة غينيا، التي كان الزنوج، لا المور، يشكِّلون النسبة الأكبر من سكَّانها.

كان المشاركون في تلك المغامرات شخصيات تنبض بالحياة وبالحيوية. ويبرز من بينهم بشكل خاص تاجر من البندقية اسمه ألفيس دا كاداموستو. قَدِم كاداموستو إلى البرتغال سنة 1454 وقابل الأمير هنري طالباً منه منحه إذناً بالمشاركة في التجارة إلى إفريقيا. وسرعان ما وافق هنري على طلب كاداموستو لقناعته بأن أهل البندقية كانوا خير من يعرف شؤون التجارة البحرية، ولم يخيب كاداموستو توقعات هنري: فقد كان خبيراً في تقويم احتمالات وإمكانيات الربح في ميدان التجارة.

لا شك بأننا نشعر بالامتنان لكاداموستو لأنَّه خلّف يوميات دوَّنها عن رحلاته، وهي يوميات لا تقدَّر بثمن نظراً للمعلومات التي تحويها كما أنَّها أخَّاذة ينبعث منها السحر. فقد كان كاداموستو، مثلاً، هو أول من وصف، بعد عودته إلى أوروبا، عملية المقايضة الصامتة للملح مقابل الذَّهب على طول ضفاف نهر النيجر. ورغم ذلك، ومع كل الأسفار التي قام بها في داخل القارة ـ فقد وصل عند إحدى المراحل إلى عمق 250 ميلاً داخل البر ـ إضافة لقدرته

على تدبير أموره مع أهل البلاد الشديدي الحذر، فإنَّه لم يفلح في حل لغز مصدر الذَّهب في غرب إفريقيا.

ومن أطرف ما واجه كاداموستو، لقاؤه الذي لا يُنسى مع الملك بودوميل، وهو طاغية تافه الشأن كان يحكم مجموعة من القرى المؤلّفة من أكواخ مصنوعة من الأعشاب. كان لدى بودوميل عدد لا يحصى من الزوجات، وكان لدى كل زوجة خمس أَو ست شابات يقمن بخدمتها. أشار كاداموستو في يومياته إلى «أن من الطبيعي أن يضاجع الملك هؤلاء الشابات تماماً كما لو كنّ زوجاته، اللواتي لا يرين في ذلك أية غضاضة». ولكن ذلك لم يكن بالأمر السهل: «ألح علي بودوميل، الذي كان يعتقد أن المسيحيين يعرفون الكثير، طالباً وسيلة ما، قد يقدّر لي أن أعرفها بمحض الصدفة، تساعده على إرضاء هذا العدد الكبير من النساء، وقد عرض علي مقابل ذلك مكافأة مجزية». ولم يكشف كاداموستو ماذا كان جوابه على هذا الطلب[4].

ولدى نهاية سبعينات القرن الخامس عشر، كان البرتغاليون قد أسَّسوا مركزاً تجارياً رئيسياً على الساحل المواجه للجنوب في غرب إفريقيا، وأطلقوا عليه اسم سان جورج دي مينا. ورغم أنَّهم أنشؤوا عاصمة مهيبة في سان جورج وقاموا بصفقات عمل تميّزت بالنشاط مع الأهالي باتجاه الشمال والغرب، فإنَّ البرتغاليين لم يستطيعوا التوصّل إلى امتلاك أي من مكامن الذَّهب الإفريقية أَو حتَّى إلى المشاركة في العمل فيها. وكان يتم الحصول على الذَّهب، الذي يصل إلى البرتغال عن طريق سان جورج دي مينا، عن طريق جملة من ترتيبات المقايضة يقوم فيها البرتغاليون بتقديم الملح والأردية والأثواب والقماش الأحمر والأزرق والقماش المنسوج من القنب والقدور والمقالي النحاسيَّة والمرجان والأصداف الحمراء والعصير الأبيض[5]. كانت الأعمال مزدهرة. وفي العقد الأول من القرن السادس عشر، كان يصل إلى البرتغال من إفريقيا ما وزنه سبعمائة كغ من الذَّهب تقريباً، وهي كمية لا يُستهان بها إذا ما عرفنا أن كامل

الإِنتاج السنوي الأوروبي لم يزد على أربعة أطنان تقريباً وأن إِنتاج البرتغال لم يكن ليزيد على الصفر(6).

في شهر آب من سنة 1487، أبحر بارثولوميوديار، وهو مستكشف برتغالي خبير في البحار الإِفريقية، أبحر من برشلونة على رأس سفينتين شراعيتين سريعتين وسفينة تموين بعد تلقيه أوامر بالدوران حول إِفريقيا باتجاه الهند. وبعد ستة أشهر، كان دياز أَول أوروبي يرسو بسفينته على الساحل الجنوبي الشرقي لإِفريقيا. وقد استمر بالإِبحار حيناً من الوقت وهو ينوي الوصول إِلى الهند، لكن رجاله كانوا نافذي الصبر للعودة إِلى الوطن وبخاصة أن سفينة التموين كانت قد تخلَّفت عنهم كثيراً. لم يكن أمام دياز من خيار سوى العودة، مما يعني أن فاسكو دي غاما كان السبّاق في الوصول إِلى الهند سنة 1497 والبدء بعملية نشر المراكز البرتغالية الكبيرة في البحار الآسيوية. استدار دياز عائداً بسفنه، وأبحر مرة أُخرى ماراً بالرأس الموجود في أقصى جنوب إِفريقيا، والذي سيطلق عليه ملك دياز فيما بعد اسم رأس الرجاء الصالح، لأَنَّه يؤدي إِلى طريق الهند(7).

وفي كانون الأَول سنة 1488، عاد دياز إِلى لشبونة، بعد ستة عشر شهراً من مغادرته لها. كان أحد الأَشخاص الذين تجمعوا للاستماع إِلى تقريره المفصَّل عن رحلته بحاراً من جنوى يدعى كريستوفر كولومبوس، وبينما كان كولومبوس يستمع إِلى العرض الذي قدَّمه دياز قام بتدوين الكثير من الملاحظات.

كان كولومبوس ابناً لحائك، ومثل الكثيرين من أهل جنوى، أصبح بحاراً في سن مبكرة. عمل بحاراً على متن سفينة غرقت في إِحدى المعارك، وأَبحر في شرق البحر الأبيض المتوسط وقد يكون وصل إِلى تركيا، كما أبحر في

رحلة إلى آيسلندا توقف خلالها في أيرلندا، وأبحر في كثير من البحار المعروفة على الشاطىء الإفريقي. ويؤكد صاموئيل اليوت موريسون، أشهر من كتب سيرته، أن كولومبوس كان واحداً من أفضل الملاحين والبحَّارة في عصره. لم يكن الشك يساور كولومبوس بأن الطريق البحري الذي يتخيَّله بالاتجاه مباشرة نحو الأطلسي، لن يؤدي فقط إلى الاستغناء عن الطُّرق البرية المتجهة إلى آسيا، بل إنَّ هذا الاتجاه مباشرة نحو الغرب يبدو أكثر منطقية من المسالك الملتوية المتجهة نحو الشرق التي يحاول البرتغاليون الإبحار فيها. كان كولومبوس واثقاً من أنَّه سيعثر على الذَّهب، لكنه، عن طريق تقصير الزمن اللازم لذلك، سيتمكَّن من خفض تكاليف الرحلة إلى الهند وبقية آسيا إلى حد كبير، كما سيتمكَّن من شحن بضائع أكثر تنوعاً. بالإضافة لكل ذلك، كان كولومبوس عميق التدين وكان يحلم بإنفاق الذَّهب الذي سيكسبه من رحلة اكتشاف المسارات هذه في تمويل حملة تهدف إلى استرجاع قبر المسيح من أيدي المسلمين[8].

عاش كولومبوس في لشبونة مدة طويلة، وتزوج من إحدى فتياتها وكان يعمل من حين لآخر في رسم الخرائط. حاول كولومبوس التقرّب من البلاط سنة 1484 لقناعته بأن البرتغال ستكون بلا شك البلد التي ستدعمه، وعرض على الملك فرصة تعهُّد رحلة تمويلها. لكن الملك جون الثاني، ابن أخ الأمير هنري وحفيد الملك جون الأول، رفض طلبه بكل صراحة ووضوح. فقد كان البرتغاليون، الذين أصابوا الثراء نتيجة ترتيباتهم في إفريقيا والعلاقات التي كانوا أنشؤوها مؤخراً مع جزر الهند الشرقية عبر رأس الرجاء الصالح، كانوا لا يرون ضرورة القيام بمخاطرة جديدة. وعلى أي حال، فإنَّ ما جعل جون يرفض الفكرة هو إصرار كولومبوس على أن يمنحه الملك لقب فارس وأن يعيِّنه أميرالاً للمحيطات وحاكماً باسم الملك على كل الأراضي التي سيكتشفها، إضافة لتلقيه 10 بالمائة من جميع المكاسب التي يتم الحصول عليها في تلك الأراضي

ـ ويتضمن هذا تحديداً الذَّهب. وقد كانت تلك هي نفس الشروط التي استطاع كولومبوس فيما بعد انتزاع الموافقة عليها من فريديناند وإيزابيلا.

وفي سنة 1486 تحول كولومبوس، الذي لم يفقد الأمل، إلى العاهلين الإسبانيين. لم تنته اللجنة المكلَّفة بدراسة عرضه من عملها قبل سنة 1489 لتقرِّر عندها أن فكرته لا تحمل أيَّة ميزة: فالرحلة ستستغرق وقتاً طويلاً كما أن اللجنة كانت تشك بوجود أية أرض لم تُكتشف بعد. وبعد ذلك، رفض الملك هنري السابع ملك إنكلترا فكرة كولومبوس وسخر مستشارو الملك منها ووصفوها بالخيالية. كما رفضها أيضاً ملك فرنسا شارل الثامن.

وهنا لم يعد أمام كولومبوس من خيار سوى التخلي عن الفكرة بكاملها. فقد واجه الرفض من قِبل أربعة ملوك أوروبيين سخروا من محاولته لإقناعهم بأنَّه كان يعرض عليهم أسرع الطرق إلى جزر الهند الشرقية وأكثرها مباشرة واقتصادية، وقرَّر العودة لرسم الخرائط.

لكن الملكة إيزابيلا لم تفقد الاهتمام كلية بخطة كولومبوس البارعة. لا شك بأن المخاطر كانت واضحة، لكن المكافآت قد تكون مجزية: فطريق كولومبوس المختصر سيمكن إسبانيا من الوسيلة التي تساعدها على سلب البرتغاليين السيادة في جزر الهند الشرقية، كما أن الذَّهب الذي وعد به كولومبوس سيقوم بتمويل ودعم الأسرة الملكية التي كانت تحلم بإنشائها. وهكذا، استدعت إيزابيلا كولومبوس مرة أخرى، بل أنَّها أرسلت له المال اللازم لشراء ثياب جديدة وبغل يمتطيه عند القدوم إليها. كانت الأنباء في البداية رائعة، فقد وافقت اللجنة الجديدة التي عيَّنتها إيزابيلا على عرضه. ثم جاءت الأنباء السيئة: لقد رفض مجلس المستشارين الأعلى ما اعتبره طلبات كولومبوس المغالية بشأن الألقاب والمكافآت المالية.

امتطى كولومبوس بغله، يملؤه الشعور بالإحباط والكآبة، وعاد إلى موطنه. كان قد بدأ الرحلة لتوه على الطريق الذي تسلكه البغال عندما أدركه

خيّال وطلب منه العودة لمقابلة الملكة. لقد قام مستشار ذو نفوذ بإقناعها بعد إلحاح بتغيير رأيها. كان ذلك في نيسان من سنة 1492. وبعد أربعة أشهر، وقبل أن تبزغ شمس الثالث من آب، اعترف كولومبوس وطاقمه أمام الكاهن وتناولوا القربان المقدس ثم صعدوا إلى سفنهم. واختتم كولومبوس أمره برفع المراسي بعبارة «باسم المسيح». أما ما حدث بعد ذلك فمعروف تاريخياً[9].

بعد يومين من إبحاره على محاذاة اليابسة في جزيرة سان سلفادور، التي كان كولومبوس واثقاً من أنَّها من جزر اليابان، أو سيبغانغو كما كان يسميها الإسبان، أبحر إلى الأمام بحثاً عن هدفه. كان على يقين من أنَّه سرعان ما سيكون قادراً على إثبات ما ذكره ماركو بولو في ملاحظاته عن رحلته من أن القصور في اليابان كانت مسقوفة بالذَّهب ـ بل إنَّه حمل معه نسخة من كتابات ماركو بولو لاستخدامها كدليل في الأراضي التي كان يتوقع أن يزورها[10]. وقد زادت قطع الذَّهب الصغيرة التي كان أهل البلاد يزيِّنون بها أنوفهم، من شعور الانتظار والتوقع. وبمجرد أن لاحظ كولومبوس أن الهنود لا يقيمون وزناً كبيراً لذهبهم، أسرع بعرض الخرز والقبعات عليهم لقاء ذلك الذَّهب. كانت بحق تجارة رابحة.

قام سكان البلاد الذين قابلهم كولومبوس في سان سلفادور بإخباره بأن هناك جزيرة كبيرة لا تبعد كثيراً تسمى كوبا، وكان لاسمها وقع قريب من كلمة سيبانغو الأمر الذي أقنع كولومبوس وطاقمه بأنَّهم قاربوا إدراك الهدف. وفي 28 تشرين الأول، رسوا على شاطىء كوبا، لكنهم لم يجدوا أي ذهب. ورغم أنَّهم اكتشفوا التبغ، إلاَّ أنَّه لم يثر اهتمامهم، إذ ما من شيء سوى كميات ضخمة من الذَّهب كان بإمكانها إرضاءهم. وخلال الفترة بين 12 تشرين الأول سنة 1492 و17 كانون الثاني سنة 1493، عندما قفل كولومبوس عائداً إلى إسبانيا، ذكر الذَّهب في يومياته أكثر من 65 مرة[11]. وقد كتب في 13 تشرين الأول 1492، بعد يوم واحد من نزوله على اليابسة، يقول: «لقد كنت يقظاً وتجشمت

المتاعب لأتحقّق من وجود الذهب»[12]. ومما شجعه على ذلك الاعتقاد هو لون البشرة الداكن لأهل البلاد، فقد كان الأوروبيون منذ زمن طويل يعتقدون بأن البشرة الداكنة هي دليل أكيد على وجود الذَّهب. وأثناء إبحاره على طول الشاطىء الكوبي، كتب في يومياته: «نظراً للحرارة الفظيعة التي أعاني منها، لا بد وأن تكون البلاد غنية بالذَّهب»[13].

لقد استخف كولومبوس الفرح بسبب اكتشافاته، لكنه واجه أيضاً خيبات أمل مريرة، هو والرجال الذين تبعوه في أَول الأمر. فالأَرض التي اكتشفوها لم تكن، في نهاية الأمر، جزر الهند الشرقية، رغم أن كولومبوس كان لا يزال يعتقد بأَنَّه في آسيا حتَّى خلال رحلته الثالثة التي قام بها بعد ست سنوات من الرحلة الأولى. والأسوأ من ذلك، أن تلك المساحات الشاسعة من الأَرض القارية التي وجدوا أنفسهم في مواجهتها، كانت تبدو وكأنها حاجز لا نهاية له، ولا يستطيع أحد التكهن بكيفية الالتفاف حوله للوصول إلى جزر الهند الشرقية، وهو الهدف الوحيد الذي يجعل من هذه الرحلة الخطرة أمراً يستحق المجازفة. ولكن لو كانت كمية الذَّهب في تلك الأراضي قد حقَّقت توقعاتهم على الأقل، لكان في ذلك تعويضاً ما عن الإحباط الناجم عن إخفاقهم في إدراك هدفهم النهائي. لا شك بأن الذَّهب كان موجوداً، لكنَّه بالتأكيد لم يكن ذلك المنجم الغني.

ومع ذلك فإنَّ التعليمات التي انطلقوا على أساسها كانت لا تقبل الجدل. فقد كانت أوامر الملك فيرديناند: «احصل على الذهب، إن أمكن، فبشكل إنساني، ولكن بأي ثمن ـ احصل على الذَّهب»[14].

في سنة 1510، قرَّر فاسكو نانيز بالبوا وهو مزارع إسباني من أسترامادرا، بعد أن ملأه السخط وأثقلته الديون، أن يغادر جزيرة هيسبانيولا

(سانتو دومينغو الحالية) وأن يلتحق بحملة متجهة إلى داريين، وهي المنطقة التي يلتقي عندها برزخ بنما بشواطىء كولومبيا الشمالية. كان هناك ذهب في هيسبانيولا الوسطى، حيث كان الإسبان يستغلون كلاً من المناجم والهنود بأسلوب بالغ القسوة لدرجة أَنَّه بحلول 1519 لم يكن قد تبقَّى من السكان الأصليين سوى ألفي شخص فقط من أصل مائة ألف شخص، كما كان يجري إحضار العبيد من إفريقيا للعمل في المناجم[15]. ورغم ذلك، انتشرت إشاعات في داريين تتحدَّث عن وجود كميات وفيرة من الذَّهب في مكان ما إلى الجنوب، قد تكون قريبة من بحر يحتمل أن يؤدي وجوده غير المؤكد إلى العثور على الذَّهب. عندما وصل بالبوا إلى داريين، ربطته صداقة حميمة بأحد رجال السيف وكان رجلاً أمياً من استراماندورا أيضاً، وهو فرانشيسكو بيزارو. كان بيزارو، مثل بالبوا، لا يأبه بالمخاطر إذا كانت المغامرة تعد بمكافأة تعوض عن تلك المخاطر.

لم يؤد الانتقال إلى داريين لحل مشاكل بالبوا المالية. وفي أحد أيام شهر أيلول من سنة 1513، كان بالبوا، وهو لا يزال يشعر بالإحباط ويعاني بعض المشاكل القانونية، يزن كمية من الذَّهب عندما ظهر أمامه زعيم قبيلة من البدائيين، ونثر قطع المعدن البرَّاق في أنحاء الغرفة وصاح به: «أنا أستطيع أن أخبرك عن أَرض يأكل أهلها ويشربون في آنية من الذَّهب، حيث قيمة الذَّهب لا تتعدَّى قيمة الحديد لديك»[16]. كان ذلك كل ما يحتاجه بالبوا ليندفع للقيام بمغامرة كبرى يتوقع منها أن تؤدي إلى لفت نظر الملك فرديناند إليه. وبدأ يشكل مجموعة من 190 رجلاً إسبانياً، وفي ذهنه أن يتبع المسار المؤدي إلى مصدر الذَّهب الذي تتحدَّث عنه الإشاعات بشكل نهائي هذه المرة، وأن يحل لغز البحث، الذي لم يكتمل بعد، عن طريق يؤدي إلى آسيا عبر المحيط. مرت ثلاثة أسابيع، تعرّض فيها رجال بالبوا لهجمات الهنود العدائيين والحشرات والأفاعي، واستطاعوا متابعة السير باتجاه الغرب حتَّى وصلوا إلى

جرف شديد الانحدار أخبرهم الهنود بأن المنحدر على الطرف الآخر من القمة كان يؤدي إلى بحر كبير. ولا بد أن جون كيتس، عندما كتب قصيدته كان يقصد شخصاً آخر، لكنه كان يعني نفس المحيط ونفس الشعور في تلك اللحظة العظيمة،

كان شعوري كشعور من ينظر إلى السماء
فيرى كوكباً جديداً ينزلق داخل مدى بصره
أَو كشعور كورتيز الجسور عندما أمعن النظر
في المحيط الهادي بعينين كعيني النسر
بينما كان رجاله يتبادلون النظرات بدهشة جامحة
صامتين فوق القمة العالية في داريين.
(عندما قرأ لأول مرة ترجمة تشابمان لشعر هوميروس)

وبعد يومين، خاض بالبوا أمواج المحيط الهادي مشرعاً سيفه منادياً بملكية ملك إسبانيا «للبحر الجنوبي الكبير. . . . بكل ما يحتويه»[17]. ثم قام، مع رجاله دون رحمة، واضعاً بذلك قاعدة للقسوة على الهنود نافسه فيها كثير من الإسبان الآخرين، بنهب الكنز الوفير من القطع الذَّهبية التي وجدوها في القرى الهندية. ومن الواضح أن الأناقة ودرجة الرقي المذهلة لتلك القطع التي تقارب التجريد لم يكونا ليعنيان شيئاً لأولئك الرجال[18]. فآثار خامات الذَّهب التي اكتشفوها على السواحل الرملية لبحرهم الجنوبي ألهبت خيالهم بدرجة أكبر بكثير.

لكن هذا الإنجاز الباهر لم يُفلح في حل مشاكل بالبوا، ويبدو أنّه كان يواجه متاعب مزمنة مع السلطة. فبعد اكتشاف المحيط الهادي، وبينما كان بالبوا يخطط للإبحار نحو الجنوب، في بحره المكتشف حديثاً، باتجاه البيرو بحثاً عن مزيد من الذَّهب، وجّه إليه حاكم داريين تهمة الخيانة وأمر بضرب عنقه. ومن قبيل الصدفة، أن الحاكم، الذي كان قد أرسله ملك إسبانيا مع ألف

وخمسمائة رجل، بعد تلقيه الأخبار المثيرة المتعلقة باكتشافات بالبوا، هذا الحاكم كان والد زوجة بالبوا، أما الرجل الذي عهد إليه الحاكم بمهمة تنفيذ الإعدام فلم يكن سوى فرانشيسكو بيزارو.

كان بيزارو لقيطاً، تخلّت عنه أمه وتركته على درج كنيسة البلدة حيث وُلد، نشأ خشن الطباع، قوي الجَلَد واكتسب كفاءات قيادية قوية. وفي زمن لجأت فيه الغالبية العظمى من الأشخاص إلى تسويغ سوء معاملة الهنود على أن مبعثها إلى حد ما الرغبة في تحسين قَدَر هؤلاء وإسباغ بركات المسيحية عليهم، رفض بيزارو أن يموّه حقيقة أهدافه. فبعد الانتصار في البيرو، وعندما طلب القسيس من بيزارو أن يبذل المزيد من الجهود لتحويل السكّان الأصليين للمسيحية، كان جواب بيزارو: «لم آت إلى هنا لأسباب من هذا القبيل. لقد جئت لأسلبهم ذهبهم فحسب»[19].

كان رجلاً ذا إرادة فولاذية وثقة أكيدة بقدراته، مهما تكن العقبات التي تعترض سبيله. ولنأخذ بالاعتبار هنا هذه الحقيقة المثيرة للدهشة: إنَّ أول اتصال حاسم بين بيزارو وقبائل الأنكا لم يحدث قبل سنة 1532، أي بعد ثماني سنوات من انطلاق الحملة الاستكشافية من بنما، نزولاً على شاطىء المحيط الهادي، تلك الحملة المؤلّفة من سفينة واحدة على متنها مائة رجل. وحتَّى أنَّه قام خلال هذه السنوات الثماني برحلتين عاد فيهما إلى إسبانيا لتوطيد الدعم الملكي وتأمين الموارد الكافية للحملة في البيرو.

يُعتبر كتاب ويليام بريسكوت «غزو البيرو» The Conquest of peru، الصادر في أيام سنة 1847، أحد أهم الأعمال الأدبية الأمريكية في القرن التاسع عشر، يتميَّز أسلوب الكتاب بالحيوية وبأناقة نادرة وبثقافة تاريخية لا تشوبها شائبة(*). إنَّ بريسكوت يتخذ موقفاً معادياً بشأن نفاق الإسبان في تبرير فظائعهم

(*) النسخة التي بحوزتي صادرة عن دار هيريتيج بريس، نيويورك، سنة 1957، وهي تضم سيرة بريسكوت بقلم العالِم العظيم في مجال البحار صاموئيل إيليوت موريسون.

باسم المسيح، لكنه لا يملك إلاَّ الإعجاب بشجاعتهم وبراعتهم وجرأتهم في وجه الظروف المربكة التي كانت تناوئهم.

بعد تسلّق الشعاب القفراء في جبال الأنديز، وغالباً عبر ممرّات لا تكاد تتسع إلاَّ لمرور حصان، تحفّها منحدرات مخيفة إلى هاوية بعمق آلاف الأقدام، استطاع مائتا رجل من الإسبان إخضاع إمبراطورية كان عدد سكّانها يصل إلى 3,5 مليون نسمة على الأقل[20]. ويشمل ذلك أجزاء كبيرة من دول الإكوادور وبيرو وبوليفيا وتشيلي والأرجنتين الحالية[21]. وفي نقطة حاسمة خلال هذه الحملة، استطاع جيش بيزارو الصغير القضاء على مقاومة ثلاثين ألفاً من جنود الأنكا المدربين على القتال على ارتفاعات تزيد على عشرة آلاف قدم.

كان الإسبان مقاتلين صعبي المراس شجعان قساة القلوب، لكنهم شعروا بالدهشة، كما حدث مع رجال كورتيز في المكسيك، للمزايا التي اكتسبوها عن طريق الظهور كأشباه آلة أمام الهنود. فقد كانت الوجوه الشاحبة والمدافع والأبواق والجياد والدروع اللامعة والعربات، كانت تلقي الرهبة والخوف في قلوب الهنود. وبالرغم من أن مجتمع هؤلاء الهنود، كان من نواح عدة أكثر تنظيماً وتماسكاً، وأكثر إنتاجية في ميدان الزراعة وأكثر تطوراً من الناحية الفنية، من المجتمع الإسباني، إلاَّ أن هؤلاء الهنود لم يسبق لهم أن ابتكروا العجلة، كما أن حيوانات اللاما، التي كانت تنتشر في كل مكان هناك، لم يكن بإمكانها أن تقف على قدم المساواة مع الجواد من حيث السرعة والصلاحية للامتطاء والذكاء. كانت الميزة التقنية الوحيدة التي يتمتعون بها هي نظام يثير الذهول بفعاليته، من العدّائين المتناوبين الجيدي التدريب الذين كانوا يقومون بنقل الأخبار والمعلومات صعوداً ونزولاً من جبال الأنديز الشاهقة، عبر طُرق لا تقل

جودة عن الطرق الرومانية، وكانوا يؤدون عملهم بكفاءة منقطعة النظير لدرجة أنَّهم كانوا يوصلون السمك حياً من الساحل إِلى النبلاء الذين يقطنون عالياً فوق وديان الجبال.

وصلت الأمور إِلى ذروتها في هذه القصة الطويلة في تشرين الثاني سنة 1532، عندما وصل بيزارو ورجاله إِلى منهل ماء في أعالي الجبال يدعى كاجامالكا، حيث كان الإِمبراطور أتاهوالبا، «الأنكا» أَو ابن الشمس، يتخذ سكنى مؤقتة(*). كان أتاهوالبا يدري بقدوم الإِسبان، بل إِنَّه في الواقع بعث برسله للترحيب بهم. أما الإِسبان فكان ما أثار اهتمامهم بشكل خاص هو شخص بعينه من هؤلاء الرسل لأَنَّه جاء وهو يحتسي شراب تشيتشا ـ عصير الذرة ـ من أقداح ذهبية كان مرافقوه يحملونها له.

وعندما كان الإِسبان ينظرون من أعلى الجبل إِلى الوادي الأخضر والمدينة الصغيرة كاجامالكا بسكانها العشرة آلاف، لاحظوا موقع ينابيع المياه الحارة حيث كان الإِمبراطور والأمراء قد ذهبوا للاستشفاء. كما لاحظوا أيضاً أمراً آخر أقل جاذبية: كتلة من البياض تغطي عدة أميال. كانت تلك خيام جيش ابن الشمس، وهو منظر أثار فزع الإِسبان نظراً لكثرة عدد الخيام. لكن وقت التراجع كان قد فات.

عندما دخل الفاتحون، كما يدعوهم بريسكوت، مدينة كاجامالكا لم يجدوا سوى شوارع خالية. وبعد أن ساروا مسافة قصيرة، وصلوا إِلى ساحة كبيرة مكشوفة محاطة بأبنية واطئة تضم قاعات رحبة، ويُحتمل أنَّها كانت ثكنة جنود ابن الشمس. كان بيزارو مصمماً على احتلال المنطقة.

(*) إن بريسكوت يتهجأ اسم هذه المدينة ومدن الأنكا الأخرى بحرف (س) بينما يميل الكتَّاب المعاصرون لاستخدام حرف (ج) عوضاً عنه. وقد التزمت أنا بهذه التهجئة.

قام بيزارو على الفور بإرسال قوة صغيرة إلى المعسكر الهندي، يقودها أخوه هيرناندو بيزارو وزميل له أعلى منه رتبة يدعى هيرناندو ديزوتو. اشتهر ديزوتو لاحقاً بسعيه لاكتشاف فلوريدا بحثاً عن ينبوع الشباب، وتوفي سنة 1542 على ضفاف نهر الميسيسيبي دون أن يفلح بالعثور لا على ينبوع الشباب ولا على أي ذهب في أمريكا الشمالية، وكل ما حصل عليه هو قيام شركة كرايسلر في ثلاثينات القرن العشرين بإطلاق اسمه على أحد أنواع سياراتها. كما ضمَّت تلك المجموعة رجلاً هندياً، كان الإسبان قد علموه من اللغة الإسبانية ما يكفي ليقوم بدور المترجم. وقد أطلقوا عليه اسم فيليبيلو.

وجد الإسبان ابن الشمس جالساً في فناء رحب ذي أبنية بديعة تتوسّطه نافورة، وكان محاطاً بالنبلاء وسيدات العائلة المالكة. كان في حدود الثلاثين من عمره، وسيماً ذا بنية أقوى من بنية كثير من مواطنيه، كما كان ضخم الرأس محمر العينين مما جعله يبدو عنيفاً. قدَّم هيرناندو بيزارو التحية لأتاهوالبا وأخبره أن القائد الإسباني ورجاله كانوا «رعايا أمير قوي يعيش عبر البحار. . . . وقد جاؤوا. . . لعرض خدماتهم ولينقلوا إليه تعاليم الدين القويم الذي يعتنقونه». ثم قام ديزوتو بدعوة ابن الشمس لزيارة الإسبان في مواقعهم في اليوم التالي، قبل هو الدعوة دون إبداء أية مشاعر. وكإجراء احتياطي، لم يترجل الإسبان أبداً عن جيادهم، لكن ذلك لم يمنعهم من أن يستجيبوا بلهفة للدعوة لاحتساء شراب التشيتشا اللذيذ من الأواني الكبيرة الذَّهبية الحجم التي كانت تقدمها لهم حسان الحريم الكحيلات.

عاد هيرناندو وفرقته إلى رفاقهم في حال من القلق الشديد مبعثه القوة والانضباط اللذان لاحظوهما بوضوح لدى جيش ابن الشمس. كما أن مستوى المدنية الأرقى كان واضحاً، لا سبيل لتجاهله بالمقارنة مع كل ما صادفوه في المناطق الأدنى من البلاد. لم يكترث بيزارو. وألقى خطاباً مثيراً في رجاله

مذكِّراً إيَّاهم بأنَّه «إذا كانت كثرة العدد، مهما عظمت، تقف في صف العدو، فلن يكون لها كبير شأن إذا كانت القوة الإلهية تقف في صفهم»[22].

كان بيزارو قد أعد خطة لا تخلو من التهور، خطة سيكون من شأنها ـ لو نجحت ـ أن تمنحه تفوقاً ساحقاً رغم الفرق الكبير في القوة العسكرية: سيقوم بأسر ابن الشمس ليضعه في مواجهة جيشه الخاص. كانت استراتيجية تحمل الكثير من المخاطر، لكنه لم يشك لحظة في أن ذلك الخلل الكبير في عدد الجنود قد وضعه في مأزق أضحى فيه أي مسعى أكثر اعتدالاً محكوماً عليه بالفشل.

وفي الصباح التالي، أخفى بيزارو قواته في الأبنية المحيطة بالساحة، ووضع مدفعيته المؤلفة من مدفعين صغيرين في الحصن ثم تأكّد من أن جميع الأسلحة كانت بوضع جيد، وبأن الدروع كانت تلمع وبأن الجياد كانت مزدانة بالأجراس وذلك لإطلاق أكبر ضجة ممكنة عند لحظة الهجوم الحاسمة. تُليت الصلاة. ويقول بريسكوت: «كان المرء ليعتقد أنَّهم مجموعة من الشهداء الموشكين على التضحية بحياتهم في سبيل معتقدهم، لا مجموعة من المغامرين الفاسقين الذين كانوا بصدد ارتكاب أكثر أعمال الغدر وحشية في التاريخ»[23].

بعد بضع ساعات ظهر الموكب الملكي لابن الشمس، لكنه توقف على مسافة نصف ميل من كاجامالكا وبدأ الرجال ينصبون الخيام. بعث بيزارو برسول يطلب من أتاهوالبا أن يأتي إلى موقع الإسبان بأسرع وقت ممكن لأنهم انوا سيقدمون له العشاء وضروب التسلية.

ابتلع أتاهوالبا الطعم ـ بكامله. وصل مع عدد قليل فقط من المحاربين الذين كانوا مجرَّدين من السلاح. هل كان أتاهوالبا واثقاً من إمبراطوريته لدرجة

أنَّه لم يكن يخش الوقوع في الشرك؟.. أم أنَّه كان يعتقد ببساطة أن حفنة لا تزيد عن المائتي رجل لن تفكّر بعمل وقح كهذا؟... مهما يكن الأمر، فقد حسم هذا القرار المتسرع قدره المشؤوم.

صحيح أن أتاهوالبا لم يحضر جيشه معه، لكنه احتفظ ببقية أفراد الحاشية، فقد امتلأت ساحة كاجامالكا بخمسة أَو ستة آلاف شخص. كان هناك مئات من الخدم الذين كانوا يغنون وهم يفسحون الطريق أمام مرور ابن الشمس. جاء النبلاء في ثياب من قماش مطبّع برسوم مربعات بيضاء وحمراء، بينما ارتدى الحراس ومرافقو ابن الشمس بزات زرقاء باذخة تكسوها زخارف برَّاقة. أما ابن الشمس نفسه فكان محمولاً على محفة من الذَّهب وهو يتربع على عرش ضخم، من الذَّهب أيضاً. كما كان يضع قلادة من أحجار الزمرد الكبيرة المتألقة وقد ازدان شعره بزخارف ذهبية.

وعندما تجمع أتاهوالبا وكل من جاء معه في الساحة دون أن يروا إسبانياً واحداً، تساءل بصوت عال أين ذهب الجميع؟ وفي تلك اللحظة ظهر القسيس وهو يحمل الكتاب المقدّس بإحدى يديه ويحمل الصليب باليد الأخرى. وكان يرافقه فيليبيلو، المترجم الهندي. أعلن القسيس أنه قد جاء ليبين لابن الشمس مبادىء الدين القويم، ثم شرع يقوم بذلك بتفصيل دقيق. وأنهى كلامه بأن شرح دور البابا، الذي كلف الإمبراطور الإسباني، «أقوى الملوك في العالم، بغزو أهل البلاد الأصليين في نصف الكرة الغربي لتحويلهم إِلى الدين المسيحي... وقد حضر الجنرال فرانشيسكو بيزارو [جنرال الملك]، لتنفيذ هذه المهمة الخطيرة»[24].

انفجر أتاهوالبا قائلاً: «لن أصبح تابعاً لأحد، أنا أعظم من أي أمير آخر على سطح الأَرض... أما ديني، فلن أغيّره. إن إلهكم كما تقولون، قد قُتل بيد الرجال الذين خلقهم هو». ثم صمت ليشير إِلى الشمس، التي كانت توشك على المغيب خلف الجبال، وأضاف «لكن إلهي لا يزال حياً في السماء

يرقب أبناءه». سحب أتاهوالبا الكتاب المقدَّس من بين يدي الراهب الذي صعقته الدهشة، ونظر إليه برهة ثم رماه على الأَرض قائلاً: «لن أتحرّك من هنا قبل أن يقوم رفاقك بالتعويض عن كل ما اقترفوه بحقي من إساءات»[25].

هرع القسيس إِلى بيزارو وأصدر إليه أمره: «اهجم على الفور، أنا أحلُّكَ من الخطيئة»[26]. لوح بيزارو بوشاح أبيض فانطلق مدفع من الحصن، ثم اندفع رجاله إِلى الساحة، بعضهم على الجياد والبعض الآخر راجلاً، وهم يصرخون صرخة الحرب: «أيها القديس إياغو فلنهاجمهم»[27] أُصيب الهنود بالذعر، ولم يبدوا أية مقاومة، وقد صعقهم دوي المدافع والبنادق وغشى أبصارهم الدخان الجهنمي، عندما أخذ الإسبان يطؤونهم بسنابك الجياد وهم يمزِّقون أجسادهم العاجزة عن الدفاع. وكان ابن الشمس، في هذه الأثناء لا يزال فوق محفته العالية ورأى نبلاءه المخلصين يتساقطون حوله في محاولة يائسة لحمايته. بل إن بيزارو نفسه هرع لحماية ابن الشمس من الإسبان الملتهبين حماساً وتلقى طعنة في يده أثناء قيامه بذلك ـ وقد كان هذا هو الجرح الوحيد الذي اصيب به أحد الإسبان في ذلك اليوم. استمرت مذبحة الهنود مدة طويلة سقط خلالها الآلاف منهم قتلى. إن العدد الدقيق للقتلى لا يزال موضع جدل، أما عدد الأسرى فكان أكبر من أن يُحصى.

أراد بعض جنود بيزارو قتل الأسرى، أَو تشويههم على الأقل بقطع أيديهم. لكن بيزارو رفض وحرَّرهم جميعاً واستبقى عدداً كافياً لخدمة الإسبان. ويعلق بريسكوت: «فيما يتعلَّق بهذه النقطة، كان للجندي العادي حاشية من الخدم للعناية به مناسبة أكثر للعمل لدى أحد النبلاء»[28]. ويبعث هذا في الذاكرة ما قاله المؤرخ الفلورنسي، المذكور في الفصل السابق، الذي شعر بالسخط «لرؤية أفراد الطبقة الوضيعة الذين... يرتدون ملابس لا تليق بمستواهم ويصرّون على تناول أنفس اللذائذ على موائدهم»[29].

وعندما هدأ نشاط الإسبان قليلاً في انتظار التعزيزات القادمة من القاعدة

الإسبانية على الساحل، استغل بيزارو الوقت ليزداد معرفة بأسيره. أما أتاهوالبا، فكان من ناحيته يرقب الإسبان عن كثب. وسرعان ما اكتشف أن لديهم شهوة أخرى تفوق في شدتها محاولاتهم المتكررة لتحويله إلى المسيحية: وهي حبهم للذهب.

وفي أحد الأيام قدم أتاهوالبا عرضاً. إذا أطلق بيزارو سراحه، فسيقوم ابن الشمس باتخاذ الإجراءات اللازمة لملء الغرفة التي كان محتجزاً فيها بالذَّهب حتى الارتفاع الذي يمكنه الوصول إليه، وذلك خلال شهرين، وسيتم إحضار الذهب من القصور الملكية والمعابد والأبنية العامة. كانت مساحة الغرفة تبلغ 17 قدما × 22 قدماً. وارتفاعها يصل إلى تسعة أقدام. وافق بيزارو على العرض بلهفة. وقف أتاهوالبا على أطراف أصابعه وتم رسم خط أحمر عند مستوى الارتفاع الذي حدَّده، ثم قام كاتب العدل بتسجيل تفاصيل الاتفاق، وبعد ذلك بعث أتاهوالبا برسل ليقوموا بتنفيذ المهمة.

لم يكتف بيزارو بذلك بل أرسل من جهته مبعوثين إلى العاصمة كيوجو، وكان الوصول إلى هناك عبارة عن رحلة شاقة تزيد على ستمائة ميل عبر الجبال، حيث وجدوا معبد الشمس الكبير المغطى بصفائح الذهب والموميات الملكية داخل المعبد، وقد أُجلست كل منها على عرش من الذهب. انتزع الإسبان سبعمائة صفيحة من الذهب عن جدران المعبد، كانت الصفيحة منها بحجم غطاء الصندوق وتزن حوالى 1،4/2 باونداً. و قبل أن يفرغوا من مهمتهم، كانوا قد حزموا مائتي حمل من الذهب نقلت إلى كاجامالكا على ظهور الهنود المقهورين. كانت تلك مجرد غزوة تمهيدية: فقد شنّ الإسبان على كيوجو غارة نهب أكثر ضراوة في وقت لاحق.

وفي هذه الأثناء، كان الذهب قد بدأ يرد من كل أنحاء البيرو، من معابد ابن الشمس وقصوره ومن الصّروح العامة، وذلك لتنفيذ عقده مع بيزارو. جاء الذهب بعدة أشكال ـ كؤوس وأباريق وصوان وآنية متنوعة، وأشكال زخرفية

وأوعية وسبائك وصفائح وقطع غريبة بشكل نباتات وحيونات متنوعة، ونافورة كان ينبعث منها دفق متألق من الذهب. اختار بيزارو بعض القطع لإرسالها كعينة صغيرة إلى الإمبراطور، شارل الخامس حفيد إيزابيلا، الذي كان يُعرف أيضاً باسم شارل الخماسي. وكان قد ورث العرش عن طريق والدته، جوانا المجنونة، كما تم اختياره امبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة وهو منصب كان قد شغله جده لوالده. ولم يقدر لحاكم أن يسيطر على مساحة في أوروبا تفوق المساحة التي كانت تحت سلطانه إلاّ نابليون وهتلر في ذروة قوتهما. وسنعود إلى شارل في فصل لاحق.

لم تبق قطعة واحدة، من كومة الذهب التي كانت تملأ غرفة أتاهوالبا، على شكلها الأصلي ما عدا تلك الكمية الصغيرة التي بعث بها بيزارو إلى إسبانيا، لكن القطع القليلة من المشغولات الذهبيَّة من البيرو، التي نجت من قبضة الإسبانيين ووصلت إلينا، تأخذ بالأنفاس(*). لقد كان من السهل الحصول على الذهب بدرجة عالية من النقاء من الرسوبات النهرية في البيرو، بحيث أن المشغولات الذهبيَّة هناك بدأت في مرحلة مبكرة. وفي سنة 500 قبل الميلاد، كانت قد صُنعت التيجان والأقراط والأساور ودبابيس الزينة. وهناك قطع أقدم عهداً من هذا التاريخ تحمل تأثيرات صينية وفيتنامية، مما يوحي بأن البحارة الآسيويين كانوا قد نجحوا في الإبحار عبر المحيط الهادي عندما كان الأوروبيون لا يزالون يحاولون تعلُّم التجديف في البحر الأبيض المتوسط(30). لكن يجب أن نعترف بأننا لا ندري ما إذا كان هؤلاء البحارة الآسيويون قد استطاعوا إيجاد طريق العودة.

وعندما حصل الغزو، كان أهل البيرو يقومون بطرق رقائق الذهب لصنع

(*) إن زيارة لمجموعة جان ميرتشيل في متحف ميترو بوليتان للفنون في نيويورك هي تجربة لا تُنسى.

أوان وأقنعة تتميز بالتنوع والتعقيد والوفرة. وأحد إنجازاتهم المذهلة كان كؤوساً ضخمة بشكل تمثال بشري، وهو عمل صعب تقنياً يترك تأثيراً «مروعاً» على المُشاهِد. وتُظهر بعض تلك الكؤوس الرأس في وضع مقلوب، بحيث أن المرء يشرب من عنق هذا الرأس، مما يوحي بأن تلك الكؤوس قد تمثل رأس عدو مدحور، أي أن الذي يستخدم الكأس يشرب، بشكل رمزي، من جمجمة هذا العدو ـ كما كان يفعل اللومبارديُّون. وقد تم العثور على إزار صوفي يحوي ثلاثين ألف صفيحة دقيقة من رقائق الذهب. ومن ناحية أخرى، كان الصياغ يصنعون صفائح من الذهب ذات تصاميم بارزة لإكساء الجدران، كتلك الألواح التي انتزعها الأسبان عن جدران المعابد في كيوجو[31].

وفيما عدا تلك القطع الصغيرة التي استُبقيت لتُعْرض على الملك شارل الخامس، تحوّل كل ذلك الكنز المتراكم من قطع تزينيَّة إلى نقد، وبدأت قطعة بعد أُخرى تختفي داخل بواتق الصهر ليُعاد صبها بشكل سبائك ذهبيَّة. عهد بيزارو بتلك المهمة إلى صياغ من الهنود، أي نفس الأشخاص الذين كانوا قد أبدعوا تلك القطع الجميلة. استغرق العمل شهراً كاملاً، لكن النتيجة كانت سك 1,326,539 بيزو ذهبي، حسَبَها بريسكوت على أنها تعادل 15 مليون دولار وذلك عندما كان يؤلف كتابه في أربعينات القرن التاسع عشر[32]. ويعني هذا بالقيم المعاصرة مبلغ 270 مليون دولار، وهو مردود لا بأس به لجهود يقوم بها المرء تحت أية ظروف كانت، ولكن هذا المبلغ لا يستطيع أن يعبّر عن مدى أَهميَّة ذلك الكنز في الاقتصاديَّات الصغيرة للقرن السادس عشر. فهذا الحساب لا يتضمن العرش الذي كان ابن الشمس يعتليه عندما دخل المدينة بتلك الطريقة الصاخبة ـ 190 باوناً من الذهب من عيار 16 قيراطاً، أو ما يعادل إنتاج سنة كاملة من مناجم الذهب في البيرو[33]. لقد احتفظ بيزارو بتلك المكافأة لنفسه. وإذا نحن حوَّلنا قطع البيزو الذهبيَّة إلى وزن بالأطنان، فلا بد أن الهنود ملؤوا غرفة أتاهوالبا بخمسة أطنان من الذهب تقريباً، أي أكثر من مجمل الإنتاج

الأوروبي السنوي من الذهب في ذلك الوقت، أو لكي تكون الصورة أكثر وقعاً في النفس، ما يعادل إنتاج مناجم الذهب في البيرو لمدة عشرين سنة[34]. ومن ناحية أخرى، لا بأس من أن نذكر هنا أن جستنيان وضع ضعف تلك الكمية من الذهب في كنيسة القديسة صوفيا وأن فدية جان الثاني، البالغة ثلاثة ملايين كروان، كانت أكثر من ضعف كتلة الذهب في غرفة أتاهوالبا. لا عجب إذاً أن يعتقد جستنيان أنَّه قد تفوق على سليمان وأن يهبّ الشعب الفرنسي بثورة ضد الأعباء الثقيلة التي فرضت عليه.

انتهت حكاية ابن الشمس نهاية بشعة. فالجنود الإسبان الذين وصلوا بعد ذلك لم يجدوا أي معنى في استمرار إيواء أتاهوالبا كما أنهم كانوا يعارضون تحريره من الأسر. قاوم بيزارو الضغوط أول الأمر لكنه استسلم في النهاية. قُدِّم ابن الشمس إلى المحاكمة متهماً بعدة جرائم وهي اغتصاب العرش، وتبديد الأموال العامة وارتكاب الزِّنا وعبادة الأوثان ومحاولة التحريض على العصيان ضد الإسبان. لم تضيع المحكمة ـ المهزلة وقتاً طويلاً قبل التوصّل إلى قرار بأن أتاهوالبا مذنب. وبعد إصدار الحكم، استدار أتاهوالبا إلى بيزارو والدموع تملأ عينيه وسأله «ما الذي ارتكبتُه، أو ارتكبه أطفالي، حتى أُلاقي مصيراً كهذا؟.. ومنك أنت بالذات أيضاً، أنت الذي قُوبل من شعبي بكل اللّطف والمودة، أنت الذي شاركتك كنزي، ولم تلق مني غير كل خير»[35]. أدار بيزارو ظهره ومضى دون أن يجيب.

وفي 29 آب سنة 1533، بعد ساعتين من مغيب الشمس، أوقد الإسبان المشاعل في الساحة وربطوا أتاهوالبا، وهو مكبل بالسلاسل تماماً، إلى عمود الإعدام تحيط به حزم الحطب المُعدَّة لحرق جثته. ثم ظهر القسيس الذي كان أول من ألقى عليه محاضرة حول فضائل المسيحية، وأمسك الصليب ووضعه

أمامه وحذَّره من اللعنة الأبدية التي ستصيبه إِذا لم ينبذ دينه الوثني ويقبل دين المسيح. رفض أتاهوالبا الإِذعان. وفي النهاية، وعد القسيس أتاهوالبا أَنَّه إِذا تحول إِلى الدين المسيحي فإِنَّهم سيوفرون له موتاً سريعاً بالخنق بالطوق الحديدي، بدل معاناة آلام الخازوق التي لا نهاية لها. استسلم أتاهوالبا وقد هدَّه اليأس، وتقبل المعمودية باسم جوان دي أتاهوالبا وذلك تكريماً للقديس يوحنا المعمدان، الذي صادف وقوع هذا الحدث الحزين في يوم عيده. ثم قام الجلاد بتنفيذ مهمته الشنيعة بينما وقف الإِسبان يتمتمون بصلواتهم من أجل خلاص روح ابن الشمس.

إِنَّ نهاية قصة الغزاة تبدو وكأنها أمثولة أخلاقية. لقد انتقد آدم سميث بقسوة «ذلك الظمأ المقدس للذهب» الذي دفع المستكشفين والغزاة للذهاب إِلى العالم الجديد، وكان مصيباً في ذلك[36]. فإِرواء ذلك الظمأ أودى بمعظم هؤلاء الرجال إِلى عاقبة وخيمة، بدءاً ببالبوا نفسه.

انقسمت مجموعة بيزارو الأصلية إِلى زمر قامت بإِغراق روح المغامرة الكبيرة في بحر من النزاعات الداخلية المميتة على الزعامة والغنائم. وبعد الجهود الجبارة التي بذلها الكثيرون في غزو البيرو، والمخاطر المخيفة التي واجهوها، لم يستطيعوا تحقيق أحلامهم في العودة إِلى إِسبانيا بثروتهم الذهبيَّة ليعيشوا حياة رخيَّة، فقدَ بعضهم حياته في معارك ضد الهنود أو في حروب أهلية ضد بعضهم البعض. وهناك آخرون فقدوا ذهبهم لأَنَّه كان ثقيلاً بشكل لا يمكن حمله أثناء المعارك المستمرة ـ تماماً كبطل قصة راسكين في السفينة الغارقة. كما أن هناك كثيرين فقدوا ذهبهم في المقامرة على مبالغ كبيرة مع الأصدقاء.

انتهى تاريخ رجال بيزارو بمأساة هي الأَكثر غرابة. فقد عاد هيرناندو

بيزارو إلى إسبانيا مع كنزه سنة 1540، حيث سُجن بأَمر من أعدائه لمدة عشرين سنة، خرج بعدها من السجن شبحاً مسناً وضعيفاً لذلك الجندي الجبار الذي كانه. اغتيل فرانشيسكو بيزارو سنة 1541، بينما كان يتناول العشاء في منزله في ليما، على يد متآمرين من إحدى مجموعات المنشقين. وبينما كانت السيوف تُغرز في جسده، صرخ قائلاً: «أيها المسيح»، ثم قبّل الصليب الذي كان قد رسمه بإصبعه على الأرضية المغطاة بالدماء.

وبمرور الوقت، وبعد أن استولى الإسبان على كل قطعة ذهب سائبة، وعلى كل قطعة مصنوعة من الذهب تمكنوا من العثور عليها، فقدت متعة السلب زخمها. وجاء وقت التعدين، الذي كان يعتبر عملاً جدياً. كانت المناجم في البيرو بشكل مداخل كبيرة في النهر كالكهوف، تصل غالباً إلى عمق ستين قدماً في باطن الأرض. كان الظلام الدامس يلف تلك الممرات ولم تكن تتسع إلا لرجل واحد يدخل محني الظهر ليكشط عن الصخور القدر الذي يستطيعه من الذهب ثم يقفل راجعاً وهو محني الظهر أيضاً ويخرج ليتبعه آخر ويقوم بالعمل نفسه[37].

عندما كان ابن الشمس، هو الحاكم، كانت تجري مراقبة هذا العمل الشاق وضبطه بدقة لتجنب إرهاق عمَّال المناجم وللمحافظة على حياتهم. أما تحت سيطرة الإسبان، فقد كان العمل القاسي في المناجم يدمر السكان الأصليين تدميراً، مثلما كان الأمر في كل مغامرات الأوروبيين للحصول على الذهب في العالم الجديد. ويا للمفارقة!.. يقول غيبون في كتابه «تاريخ انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية» مؤكداً أَهميَّة الذهب الإسباني للإمبراطورية الرومانية قبل ذلك بألف وخمسمائة سنة، «كانت إسبانيا، في لعبة فريدة من أَلاعيب القدر، تُعتبر بيرو أَو مكسيك العالم القديم... وإنَّ اضطهاد السكان البسطاء (الإسبان)، الذين كانوا مجبرين على العمل في مناجم بلادهم لصالح الغرباء، يشكِّل النموذج الدقيق لتاريخ أمريكا الاسبانية الحديث»[38].

وفيما بعد وعندما بدأ البرتغاليون باستثمار الموارد الذهبيَّة الضخمة في البرازيل، أصبح معدل الوفيات بين الهنود عالياً بحيث هلك القسم الأعظم من السكان مما اضطر البرتغاليين لإِحضار أعداد كبيرة من العبيد الأفارقة للحلول محلهم. ويشكل المنحدرون من سلالة هؤلاء العبيد الزنوج نسبة كبيرة من سكان البرازيل الحاليين. كما شاعت أيضاً تلك القصة المعتادة عن انتقال أمراض الرجل الأبيض، لكن ظروف العبودية الفعلية في المناجم كانت تطيح بالحياة الإِنسانية وكأنها لم تكن تساوي شيئاً.

إِنَّ أَكثر ما يثير السخرية، أن طوفان الذهب من العالم الجديد، لم يجلب لإِسبانيا الثروة والقوة اللتين وعد بهما الغزاة وتوقعهما الملك في بداية الأمر. وهذا هو موضوع الفصل التالي.

obeikandl.com